حمّـــام فرعون

للأستاذ حسن جلال

علمت وأنا فى مدينة الاسماعيلية بأن جماعة من رواد الجبال سبق لهم القيام برحلة إلى عين كبريتية فى جبل من الجبال التى فى جنوب مدينة السويس، وأنهم يعاودون التفكير فى تكرار هذه الرحلة ويتهيأون لها، فهفت نفسى إلى الاشتراك معهم لهوى قديم بينى وبين تلك الجهات كان يدفعنى منذ سنين إلى أن أقضى سحابة يوم الجمعة من كل أسبوع متقلباً بين ربوع جبال القاهرة وضواحيها.

وكانت تلك الجماعة تتألف من:

١ — أحد أعضاء مجلس النواب وشيخين من أقاربه.

٢ — ومن تاجر من كبار تجار الاسماعيلية

٣ — ومن تاجر آخر من عيون تجار القاهرة

٤ — ثم من رجل أجنبى من رجال الاعمال إيطالى الجنسية ، مزارع واسعة فى حدود مدينة الاسماعيلية.

فأما عضو النواب وقريباه فكانوا يشكون الروماتزم، وكان هذا هو الذى يحفزهم الى ارتياد تلك العين، فان لها على ما يقول الناس خواص سحرية فى شفاء الأمراض.

وأما تاجر القاهرة فقد سمع بحديث تلك العين من النائب فأغراه ذلك على أن يجرب سحرها فى أوصاله.

وأما تاجر الاسماعيلية فكان على ما فهمت رجلا لا يحتاج إلى الاستشفاء لا بالحار ولا بالبارد، وكل همه فى الحياة أن يجلس آخر النهار فى بعض المقاهى ورجيلته بين ركبتيه يمصها فتقهقه له حتى تنقطع أنفاسها فيخليها لصاحبها ويعود إلى داره راضياً مرضياً، وكانت الأسباب كلها منقطعة بينه وبين تلك الرحلة لولا أن له سيارة جميلة أحب صاحبنا النائب أن يضمها إلى القافلة فدعاه للاشتراك فلبى الدعوة.

وأما التاجر الايطالى فكان هو عماد الرحلة وبطلها لأنه كان قائدها الذى يدلها على الطريق فى وسط الأودية المهجورة والجبال المتشابهة، يعاونه على ذلك دليل بدوى ممن يعملون فى مزارعه، ولم يكن له من حافز ظاهر إلى الاشتراك فى الرحلة غير ميله إلى الرياضة، أما أن أمثال هذه الرحلة قد تساعده على تنمية معلوماته عن الصحارى المصرية وطرقاتها فهذا حديث آخر لا محل للخوض فيه الآن، وللقارىء أن يستنتج لنفسه ما يشاء...

***

هؤلاء هم أشخاص الجماعة

أما النبع نفسه فقد سمعت أنه نبع حار يخرج من الصخر، ويصب فى مياه البحر الأحمر. وأنه نبع (مكبرت) كالنبع الذى فى حلوان. والفرق بين الاثنين أن هذا بارد. أما «حمام فرعون» فهو يخرج من بطن الجبل شديد الحرارة حتى لتلقى السمكة فى مائه الدافق فتنضج فى دقائق معدودات. وعلمت أيضاً أن كهفا يقوم إلى جانب النبع. إذا دخله الانسان فانه لا يطيق البقاء فيه أكثر من ربع ساعة لفرط حرارته وشدة ما يعانى الانسان وهو بداخله من الوهج الذى يتفصد له الجسم عرقا. وقيل لى إن من دخل هذا الكهف وهو يشكو «الرطوبة» فانه لا يلبث أن يخرج منه كما ولدته أمه صحة وعافية. أما العين فانها وإن خرجت من ينبوعها حارة شديدة الحرارة إلا أنها تجرى على شاطىء البحر مسافة طويلة قبل أن تصب فيه. وأنها فى مجراها هذا تتفاوت حرارتها. فهى تبدأ حارة لا تطاق ثم تتناقص حرارتها كلما ابتعدت عن أصل النبع، حتى إذا جاءت ماء البحر وصلت وهى فاترة يطيقها كل إنسان. وقال لى من كان يحدثنى عنها: وإذا كانت مياه حلوان قد بلغت ما بلغت من الشهرة العالمية وهى باردة يرفعون حرارتها بأنابيب البخار، فلك أن تصور لنفسك مبلغ ما تمتاز به هذه العين وهى تخرج من بطن الأرض حارة حرارة طبيعية لم تتدخل فيها يد الانسان. وناهيك بحمام من مائها تعقبه خلوة قصيرة فى ذلك الكهف الذى يليها... إن الانسان ليدخلها ثم يخرج من الكهف بعدها كما يدخل المنديل القذر فى يد (الغسالة) ثم يخرج جافا ناصعا من عند (الكواء)!

***

وكان لى صاحب من ضباط البوليس أرتاح إلى صحبته فعرضت عليه رغبتى فى الاشتراك فى تلك الرحلة فتولى عنى مفاوضة الجماعة فى أمر انضمامنا إليهم. وعاد يبشرنى بأنهم يرحبون

بنا على شرط أن نكون ضيوفهم فى الحل والترحال ؛ وتذللت بذلك آخر عقبة كنت أتوهم أنها تعترضنى فى سبيل تحقيق رغبتى لأنى لم تكن لى سيارة خاصة . وليست أمثال هذه الرحلة الطويلة مما يهون فيه الحصول على سيارة بالأجرة . وتحدد موعد القيام بعد يومين من إبرام هذا الاتفاق على أن نجعل قيامنا بعد الفجر بقليل فى اليوم المحدد . ولم يبق أمامى إلا أن أتولى إعداد توافه الأمور التى تركها لى مضيفى كالمناشف التى تلزم لتجفيف عرقى وأنا فى داخل الكهف . والغطاء الذى أتدثر به عند مبيتى معهم على شاطىء البحر فى العراء . على أنى أبيت إلا أن أستصحب معى سراً بعض المرفهات التى أعلم أنها لم تكن لتخطر لزملائى على بال . فدسستها فى حقيبتى بغية أن أفاجئهم بها هناك وسط الصخور والجبال . وكانت عندى (ترامس) ثلاثة يسع كل واحد منها لتراً من الماء . فملأتها جميعا بالماء المثلوج — ونسيت أن أقول إن الوقت كان فى بداية الصيف — وعطرتها بماء الزهر وأخفيتها فى الحقيبة كما أخفيت معها آلة تصوير لألتقط بها بعض المناظر التى تخلد ذكرى هذه الرحلة . وقد دلت كل الدلائل على أنها ستكون رحلة عامرة بالذكريات التى تستحق التخليد . ولست أحتاج أن أقول إن زملاءنا كانوا قد صارحونا بأنهم سيحملون عنا مئونة تزويدنا بالماء والطعام . فلما سألت عما إذا كانوا سيحملون هذا الزاد من الاسماعيلية أم من السويس قيل لى إن العرب الذين سنصادفهم فى الوديان خلال الجبال كلهم رعاة أغنام . ونستطيع أن نحصل منهم على ما نشاء من ضأن وماعز . كما أن البحر هناك مرعى بكر يزخر بألوان السمك . والوديان لا ينقطع منها الماء الجارى . ورجال البدو لا يلبثون أن يحتاطوا بنا ويتنافسون فى خدمتنا . فكنت أستمع لهذا الحديث وأرسل أحلامى على سجيتها لتتم بألوانها الساحرة بقية تلك الصورة الخلابة التى لبثت يومين كاملين وأنا أسعد بالتقلب بين أعطاف خيالاتها !

* * *

وأخيراً حل اليوم الموعود ، وكنت على أتم أهبة للرحيل قبل بزوغ الشمس ، وأقبلت السيارات تنادينى بأبواقها ، فنزلت فاذا سرب طويل منها يضم الصحاب جميعاً ، فاستقللناها قاصدين إلى السويس ؛ والطريق مابين الاسماعيلية والسويس طريق جميل مهد أعدته فى السنوات الأخيرة شركة قنال السويس ليكون متمما للطريق القديم الذى يوصل مابين الاسماعيلية وبور سعيد . وهذا الطريق يسير إلى جانب القناة ويتمتع السائر فيه بمناظر بحيرة التمساح والبحيرات المرة الكبرى والصغرى التى تمتد على يساره ، بينما تقوم الحقول الخضراء على يمينه وهى حافلة بالأكواخ الصغيرة الساذجة ، وبألوان شتى من المواشى والأغنام ، وكلها دائبة فى رعى تلك المروج الناضرة البهيجة . ووصل الركب محطة « الكوبرى » حوالى الساعة السابعة صباحا . وهذه المحطة تقع فى شمال السويس ، وعلى بعد ثمانية كيلومترات منها . وعندها تقع « المعدية » التى ينتقل عليها المسافر من شاطىء القنال الغربى ، إلى شاطئه الشرقى — أو من شاطئه الأفريقى إلى قرى شاطئه الآسيوى كما يقولون — فاضطررنا إلى الوقوف هنا ريثما يقوم عامل « الجرك » بتفتيش أمتعتنا . وقد عجبت لهذا العمل ونحن إنما ننتقل من أرض مصرية إلى أرض مصرية . فلما استفسرت عن السبب علمت أن المنطقة التى نريد أن ندخلها خاضعة لمصلحة الحدود . والنظام الادارى فى تلك المصلحة يكاد يكون مستقلا عن إدارة الحكومة المصرية . وأنه محظور على من يريد دخول الصحراء فى تلك الجهة أن يكون معه سلاح نارى تنفيذاً لأمر المصلحة الذى يقضى بعدم صيد الغزال مثلا فى تلك المنطقة . كما أنه من المحظور أيضاً أن يحمل المسافر معه آلة تصوير حتى لا يسجل بها مناظر ترى المصلحة أنه من الواجب المحافظة على سريتها . وكانت النتيجة الأولى لوقفتنا هذه فى محطة الكوبرى ، أنى خسرت آلة تصويرى ، لانى اضطررت إلى تسليمها من تلقاء نفسى ، وبذلك ضاعت على فرصة احدى المفاجآت التى كنت دبرتها للاخوان . على أن هذه لم تكن خسارتى الوحيدة . فقد بدأ لبعضنا أن يتناول وجبة خفيفة فى ذلك المكان تكون بمثابة — الفطور لمن فاته الافطار فى منزله . وكنت أنا من هؤلاء . فأردت بعد لقيمات ازدردتها أن آخذ جرعة من الماء فهممت بتناول واحد من (ترامسى) ولكن سبقتنى إليه يد أحد الزملاء الكرام يريد أن يبالغ فى الحفاوة بى فلا يدعنى أقوم بهذه الخدمة الهينة لنفسى فما راعنى الا أن أراه يملأ كوب الترموس من مائه المعطر المثلوج ثم يهزه فى يده هزات يريقه من بعدها على الأرض كما لو كنا

نستقى من (زير) بجوار سوق فى إحدى قرى الريف ، فهو يريد أن يكفل نظافة (الكوز) مما يكون قد علق به من الغبار ! وأردت أن أعوض ماشربته الأرض من مائى العزيز فاقتصدت فى الجرعة التى شربتها واكتفيت منها بمصتين لأنى كنت أقدر مانحن مقبلون عليه من الجفاف والجدب . ولكن حلا لبقية الصحب أن يستقوا فأدار الساقى عليهم من أكوابى ، ودخلت الصحراء بنصف ما كنت تزودت لها به من الماء . وكانت هذه خسارتى الثانية فى مستهل الطريق

وحملتنا (المعدية) بسياراتنا فنقلتنا إلى الشاطىء الشرقى . وبدأنا عقب ذلك رحلتنا الشاقة فى وسط الصحراء حيث لاشىء إلا الحصى والرمال فى طريق متشابهة لا أثر فيها لأى نوع من أنواع الحياة . ولبثنا نضرب فى تلك البيداء حتى أدركنا الظهر ـ ولكنا على كل حال كنا نسمر بمختلف الأحاديث ـ وكان الذين سبقونا إلى ارتياد هذا الطريق لا يضنون علينا بشرح ما يعرفونه من معالم ، وأحياناً أيضاً بشرح مالا يعرفون استجابة منهم لنداء تلك الغريزة العجيبة التى ركبت فى كل نفس والتى تجعل صاحبها يلتذ أن يتظاهر بالعلم أمام من لا يعلم !

وكانت سيارة الايطالى فى مقدمة الركب . وقد تبع الدليل البدوى على مقدمها ليلجأ إليه صاحبه كلما أعوزته المشورة فى أمر الطريق . وفى النهاية لاحت لنا أشجار الطرفاء ، التى تزين (وادى الغَرَنْدَل) وهو واد واسع يكثر فيه النخيل ولا ينقطع منه الماء طول العام . وبدأنا نرى الناس من جديد بعد أن كنا نظن أننا انقطعنا عن العالم ـ ولكن يالهم من ناس ! . . . لقد كانوا أشباحا فى أثمال . . . أجسام رقيقة مديدة ضمرها الجوع . وعيون فاترة غائرة أطفأها الفقر والجدب . كانوا يحيطون بنا ويعدون إلى جانبنا ويلاحقوننا كما كانت تفعل جنادب الوادى الذى يعيشون فيه . أما سياراتنا فكانت عند اجتيازها لهذا الوادى تجرى فوق مياهه . إذ لم يكن أمامنا طريق أخرى غير بطنه ، فكانت أشبه بالزوارق البخارية منها بالسيارات . ولقد عاينا كثيرا ونحن نجتاز هذه المرحلة من طريقنا لأن الماء كان يتسرب إلى داخل آلات السيارة كلما أدركنا مخاضة بعيدة الغور نوعا ما . وكان الويل للسيارة التى يصيبها ذلك ، لأن الركب ما كان ليقف لأمثال تلك الأحداث ، فكانت السيارة المتخلفة تقاسى كثيرا قبل أن تلحق بالقافلة وتمسك معها بطرف الطريق . وتكررت حوادث فقد الطريق ونحن بالوادى ، ذلك لأن الطرق فيه متشعبة فكان المتخلف عرضة لأن يتبع آثار عجلات غير عجلات سياراتنا كلما غابت عن نظره بقية القافلة . وكم وقفنا وأطلقنا أبواقنا ليهتدى على صوتها من نفتقده من الزملاء . وكم كررنا نحن راجعين فى مسلك وعركنا قد تشهدنا عندما اجتزناه ، فلما فرغنا منه وجدنا أننا قد ضللنا الطريق .

* * *

وأخيراً خرجنا من هذا الوادى وعدنا إلى الصحراء من جديد ولكنها كانت فى هذه المرة صحراء نافرة صخرية يكتنفها جبل عظيم أبيض اللون تاصعه تجوس فى سفحه عربات صغيرة وتدب معها نمال بشرية تتراءى من بعيد كأنها بعض هوام الجبل أو زواحفه . وسألت فعلمت أن شركة إيطالية قد حصلت من الحكومة على امتياز لاستغلال هذا الجبل وأنها تحصل منه على نوع من الرخام النادر تصدر معظمه إلى باريس بالذات دون بلاد العالم لكثرة الحاجة إليه فى مبانيها الأنيقة الحديثة . وأن هذه الشركة قد أثرت من وراء هذا العمل ثراء طائلا . فأحببت أن نقف قليلا لنصل بعمال هذا الحجر ونتحدث اليهم فنسرى عن أنفسنا ونسرى عنهم . وفى أمثال تلك البقاع النائية يصدق قول القائل : وكل غريب للغريب نسيب !

وكانت حالة السيارات تقتضى هذه الوقفة أيضاً ، فإنها كانت قد شربت كل ما معنا من الماء وكانت فى حاجة أيضا إلى الماء . فترجلنا لنملأ صهاريجها ، واتجهت وبعض من معى إلى أولئك العمال فاذا هم جميعا من أهل الصعيد — تلك الطائفة النبيلة التى شيد أجدادها مجد الفراعنة وخلدوا آثارهم فى وادى الملوك وغير وادى الملوك ، وها هو ذا الخلف اليوم لا يجد من يستنجد بكتفه وذراعه غير الأجنبى فيلبى دعوة القوت وسط تلك الأصقاع السحيقة القاحلة يقضى عمره ويفنى حياته فى قطع الرخام وحمله ليجد هو فى آخر النهار ما يسد به رمقه . ولينعم حسان باريس بالرونق البهى والرواء الحسن . وليقف المقاول الايطالى بين الطرفين يستغل جهد المصرى وثراء الباريسى فى آن واحد .

وأردت أن أعرف من أين يحصل هؤلاء العمال على الزاد

والماء — ولعل الباعث الخفي لسؤالي كان حرصي على الاطمئنان على نفسي ومصيرها في هذا القفر قبل أن يكون إشباع حب الاستطلاع فيما عن حالة هؤلاء المساكين — فقيل لي بأن باخرة تقدم من السويس كل شهر تقريباً فتحمل اليهم الزاد والماء الذي يكفيهم حتى موعد الزورة التالية ، فبدت على أنا وزملائي علائم الاشفاق والرثاء . ولكن جرنا الحديث إلى ذكر المنائر التي تقع على شاطىء البحر الأحمر والتي تضم كل واحدة منها ثلاثة من الموظفين المصريين في حالة عزلة تامة عن العالم لمدة تسعة شهور ، إذ أن كل منارة من هذه المنائر يديرها أربعة من الموظفين يعمل كل واحد منهم تسعة شهور متتالية في العام ويحصل على أجازة سنوية تستغرق الثلاثة شهور الأخرى . ولذلك فان ثلاثة منهم فقط يجتمعون في العمل ويكون الرابع في إجازته ، حتى إذا عاد هو قام من يكون عليه الدور وهكذا . وأن الواحد من هؤلاء الموظفين متى استلم عمله في فنارة فانه ينقطع عن العالم وأخباره حتى يحل موعد وصول الباخرة التي تأتيهم بالطعام والماء مرة في كل شهر . وهم من خلال هذا الشهر لا يقرأون الصحف ولا سبيل لهم إلى معرفة ما يكون قد مر على العالم من أحداث ، وما يكون قد طرأ عليه من حروب . وعجبت من شأن الحكومة مع هؤلاء الناس ومن شأنهم هم مع أنفسهم . فاننا أصبحنا اليوم نسمع الراديو في السيارات الخاصة وهي تسير وسط الطرقات العامرة الزاخرة ، ثم ها نحن أولاء نسمع من أمثال هذه المنائر التي تترك بغير جهاز ولا صفير من هذه الأجهزة الكفيلة بأن تنقل أهلها من عزلتهم فتضعهم في وسط العمران والحياة

* * *

كان بيننا وبين (حمام فرعون) ونحن في ذلك الحجر بضع كيلو مترات قد لا تزيد على خمسة أو ستة ، ولكن ما كابدناه في قطع هذه المرحلة القصيرة فاق كل ما لاقيناه في طول الرحلة منذ بدايتها . ذلك بأن الطريق كان قد انقطع عند الحجر ، وأصبح علينا بعد ذلك أن نسير في أرض بكر لا تطرقها السيارات إلا كلما حلا لأمثالنا أن يزور ذلك المكان ، وهو نادر قليل ، وكانت طبيعة الأرض في تلك الجهة جامحة نافرة ، فبيناهي صلبة في بعض نواحيها إذا هي رخوة تغوص القدم في رمالها في نواحيها الأخرى وكان في انتقال السيارة من الصلب إلى الرخو ثم من الرخو إلى الصلب ما فيه من إجهاد للسائق وللراكب وللآلات نفسها ، وذلك لما تستدعيه طبيعة كل ناحية من تغيير درجات السرعة وتحريك رافعات السيارة واحدة بعد أخرى بما يناسب حالة الطريق وقد حدث اننا خسرنا فعلا إحدى سياراتنا فقد انكسرت بعض آلاتها في هذه التنقلات السريعة المفاجئة ، واضطررنا إلى التخلي عنها وسط الطريق بعد أن توزعت حمولتها على بقية السيارات فزادت في عسر حركتها وتعريضها هي الأخرى للتلف ، وليس يفوتني هنا أن أقول إن هذه السيارة بالذات كانت سيارة تاجر الاسماعيلية الذي لم يكن من سبب لأشراكه في هذه الرحلة غير سيارته ، ولكن هكذا قدر الله في لوحه أن يأتي أجل هذه السيارة في تلك البقعة الموحشة . وصدق الله العظيم و (ما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) وقديماً قيل :

إذا ما حمام المرء كان ببلدة دعته اليها حاجة فيطير

وقبل العصر بقليل ألقت القافلة عصاها في سفح جبل عال كان يواجهنا ، وقيل لنا انزلوا : فهذا هو « حمام فرعون »

* * *

وثبت من سيارتي فرحا وقد نسيت أمام بلوغ الهدف كل مالاقيته خلال الرحلة من مشقة . ولم أنتظر حتى يتقدمني من له علم بالمكان . لأني لم أكن رأيت في حياتي قط عينا حارة — ولكني كما هو الحال دائماً في أمثال هذه الشئون كنت قد صورتها لنفسي بعين خيالي . وكنت شديد الشغف الآن بأن أقابل بين الحقيقة وبين الخيال . فما كان أشد الفرق بين الصورتين !

كنت أتصور النبع على صورة (الفسقية) ينبثق من وسطها خرطوم عال من الماء له رشاش من حوله ثم يتجمع الماء في حوض حول العين ثم لا يلبث أن يفيض من الحوض إلى ذلك المجرى الطويل الذي حدثونا عنه . وكنت أتخيل هذا المجرى في صورة قناة جميلة وسط صخور صلدة ينساب الماء فيها رائقا صافيا كتلك القناة الجميلة البيضاء التي ما تزال آثارها باقية في « وادي حوف » بحلوان والتي كنا نتناول فيها غداءنا كلما رحلنا إلى تلك الجهة . فادرت عيني بسرعة فيما يحيط بي أبحث عن تلك الفسقية أو عن هذه القناة فلم أجد لإحداهما أثرا ، فخاب ظني لأول

وهلة وأحسست بقلبي يتراجع قليلا فى صدرى شأن من يفاجأ بأمر لم يكن يتوقعه . ولكن سرعان ما استغرق بصرى ذلك الجبل العظيم الذى كنا نقف فى كنفه . فصوبت عينى فيه وصعدتها فأخذتنى عظمته . ولمحت فى صفحته ثغرة سوداء قريبة من سطح الأرض ، فأدركت أنها لابد أن تكون مدخل الكهف الموعود . وكان هذا الجبل يقوم على شاطىء البحر ليس بينه وبين الماء فى البقعة التى وقفنا فيها أكثر من خمسين مترا ، ثم هو يمتد محاذيا للشاطىء مسافة مائتى متر أو ثلثمائة متر ، وبعد ذلك يتصل بالماء رأساً فيرتطم موج البحر بقدميه ويتحطم على صخوره السوداء . ولفت نظرى فى ذلك المثلث الرملى الضيق الذى كنا نقف على قاعدته أن قناة ضحلة تجرى وسطه فتتبعتها ببصرى مسرعا فرأيتها تبدأ عند قاعدة الجبل ولكن لم أتبين من أين ينبثق ماؤها . فدلفت إليها حتى جئت المكان الذي ينبعث منه الماء فاذا هو ثلمة ضيقة بين صخرين يسيل منها الماء كما يسيل من صنبور متوسط الحجم فيجرى على الصخور المجاورة حتى تتسلله رمال الساحل فتبلع منه ما تبلعه وتترك الباقى يندلح على صدرها حتى يصب فى البحر . وكانت رائحة الكبريت ساطعة تملأ الجو ، ولكن الماء كان يجرى كالبلور المذاب لا يعلوه بخار ولا يبدو عليه أنه حار . فأغرانى ذلك بأن أمد إليه أصبعى ولكنى ما كدت أفعل حتى سحبتها صارخاً كأنما اندق فيها مسمار . فأثلجت هذه اللسعة صدرى . ومنيت نفسى بالحمام الساخن الذى قطعت من أجله كل تلك القفار . فلست أعرف فى متع هذه الحياة ما هو أحب إلى نفسى من الحمام الساخن !

* * *

وكان إخوانى قد أدركونى وحف بعضهم بالنبع وانطلق بعضهم يساير القناة . أما الايطالى فإنه اشتغل بنصب الخيام

وشاءت المصادفات أن يكون الهواء فى ذلك اليوم قوياً ثقيلا فكان يسفى علينا التراب ونحن لا نجد ما نحتمى فيه حتى قامت خيام الايطالى فآوينا اليها وقد نال منا الجوع ، ونشر الخادم بين يدينا عليه ولفائفه وأدار علينا الخبز فالتهمناه بما أصابت أيدينا من جبن وزيتون وقديد وما إلى ذلك مما كان قد أعد لتبييل أغنام الرعاة المنتظرة وسمك الصيادين الموعود ، فأبت علينا المقادير إلا أن نأكله هو متبلا بالتراب ومحشواً بصغار الحصا ، ومع ذلك فقد كنا نتحاطفه ونتنافس فى التطويح بما نصيبه منه إلى أفواهنا قبل أن ننفخ فيه ونذرو عنه ما علق به من الرمال ، فيا سبحان الله ! أهكذا يحلو المر أحياناً فى هذه الحياة ! وماذا بقى لنا من الحقائق المطلقة فى دنيانا وكل شىء فيها اعتبارى كما نرى ؟ إلا أن الحسن إنما يكون حسناً فى ظل رضا النفس ، والقبيح إنما يقبح بزوال هذه الحالة عن النفس ! والسعادة مهما اختلف الناس فى أسبابها فهى من الكثير الغالب من صنع أيدينا وفى القليل النادر من صنع المقادير .

* * *

ولم نهجع عقب الطعام بل انتشرنا فى المكان نرتاده ونتسلق الجبل وندخل الغار بأطراف رءوسنا ثم نخرجها سراعاً لكثرة ما ألقى فى روعنا من أنه شديد الحرارة يذيب نخاع الرءوس . وقضينا على ذلك ساعة وبعض ساعة حتى أوشك النهار أن ينقضى فتاهبنا لأخذ الحمام المرتجى ، وانصرف كل واحد منا إلى صخرة توارى خلفها فخلع ملابسه . وارتدى قميص البحر . ولم تكن إلا هنيهة حتى استحال المكان إلى « بلاج » أنيق صغير بأولئك الفراعنة الصغار الذين جاءوا من أقصى الأرض ليحققوا للمكان اسمه ويؤيدوا له لقبه . وكان الأعرابى الذى مع الايطالى قد احتمل فأساً وقصد إلى أوسع مكان فى القناة فعمقه وأبعد غوره كما يتسع لأجسامنا ويصلح للاضطجاع . فنزلناه واحداً بعد واحد وساعدنا ذلك على رفع مستوى الماء قليلا فما زلنا نتقلب فيه ونتلبط . وهواء المساء البارد يصفع أجسادنا الحارة . ونحن نصر على أن نوهم أنفسنا بأننا نأخذ حماماً ساخناً حتى أدركنا أن إصرارنا سيكون وخيم العاقبة اذا نحن تمادينا فى تحدى الطبيعة إلى أبعد من هذا الحد ، فخرجنا نتواثب من حفرتنا كجماعة الضفدع دهمها داهم وهى ترتل فى مخابئها أناشيد المساء !

ولما نزل بنا الليل كان الهواء الثائر قد سكن ، والتراب السافى قد استقر ، ولاحت النجوم فى السماء زاهية زاهرة . وأشهد أنى لم أر السماء طول حياتى كما رأيتها فى تلك الليلة . فلقد اعتدنا أن نراها ونحن فى المدن من خلال المبانى الضاربة فى الفضاء ، ومن خلال النوافذ الضيقة ، فكنا لا نرى إلا قطعاً منها تذهب التجزئة

فيها بجمال المجموع . أما فى تلك الليلة فقد راقنا أن ننام فى العراء فبسطنا فراشنا فوق الرمل وألقينا عليه وسائدنا ثم انطرحنا على ظهرنا واتجهنا بأبصارنا فى السماء فراعتنا ، وبدت لنا النجوم كما لو كنا لم نرها قط قبل تلك اللحظة . وإنى لأذكر الآن كيف أننا جميعاً أصابنا وجوم مشترك أمام عظمة هذا المشهد حتى لقد بقينا فترة لم ينبس فيها واحد منا بحرف . فلما نطق أول متكلم فينا وتحدث بما راعه من منظر السماء اندفعنا جميعاً نكرر معنى واحداً فى عبارات مختلفة ، وأدركنا أننا فى سكوننا كنا تحت تأثير واحد، وأن أحداً منا لم يستطع أن يفلت من جاذبيته !

* * *

وفى غداة اليوم التالى تنفسنا مع الصبح جميعاً . ومنا من كانت قد انقضت عليه أعوام وأعوام وهو لا يرى الشمس كل صبح إلا بعد أن ترقى حدود الأفق بزمان طويل . وهببنا من مضاجعنا خفافاً تفيض حركاتنا بالقوة والنشاط ، وكانت مفاجأة الصباح التى أعدتها لنا طبيعة المكان أننا أردنا أن نحلق لحانا فامتنعت علينا الصابون مياه النبع ؛ وعبثاً حاولنا إحداث الرغوة المطلوبة على الرغم من إسرافنا فى الدعك والفرك ؛ ولم نشأ أن نضحى ببقية ماءنا العذب فى شؤون زينتنا ، فطال ركوعنا على حافة القناة حيث اجتمعنا فى شبه (صالون) خشن حقير !

وكنا قد أحسسنا فى المساء أن ذخيرتنا من الماء كادت أن تنفد ، فاحتلنا فى الحصول على مدد فلم نجد إلا صفيحتين فارغتين من صفائح البنزين فبعثنا بهما مع خادم ليملأهما من ماء الوادى فعاد بهما إلينا ونحن نتناول طعام الفطور ، فكرعنا من مائهما ما كنا فى حاجة إليه ، فاذا هو فى مذاقه أشد نكراً من ماء النبع فهذا فيه طعم الكبريت . أما ذاك فانه عبق برائحة البنزين والبترول .

وكنت أزمع العودة مع بعض الصحاب فى ظهر ذلك اليوم فرأينا أن نقضى الساعة التى بقيت لنا فى جوف الكهف حتى لا يكون قد فاتنا شىء من « متع » المكان قبل أن نبرحه . فعدنا إلى قمصان البحر فارتديناها ونشرنا شيئاً من الفراش فى أرض الغار ثم دخلنا فرقدنا فوقها ولكننا لم نلبث أن اعتدنا حرارة المكان الذى استلقينا فيه ، فأوغلنا قليلا فوجدنا فارقاً محسوساً فى الحرارة فسرنا ذلك ، وبقينا فيه أيضاً حتى ألفناه ثم أوغلنا ثانية ، وهكذا حتى أصبحنا فى قرار الكهف حيث الظلام الشامل . فما كان أروع منظرنا ونحن نزحف فى نواحى المكان كالخفافيش والعالم من خلفنا على باب الكهف ساطع بهيج ! وكنا قد احتملنا معنا مناشفنا فلم تكن ترى فينا إلا شبحا يستوى قاعدا فيأخذ فى تدليك جسمه بمناشفه حتى يجفف عرقه فلا يكاد يرقد حتى يقوم إلى جانبه شبح آخر يظل يهزج ويحك ذراعه بذراعه فلا ينتهى حتى يسلم هذه المهمة لسواه ، وهكذا حتى أحسسنا بحلوقنا آخر الأمر تكاد تجف من فرط ما عرقنا وأفرزنا من ماء جسومنا فعولنا على الانسحاب . وكان حتما علينا أن ننسحب متدرجين كما أوغلنا متدرجين حتى لا تقتلنا الطفرة أو يؤذينا الانتقال السريع . فقضينا فى هذا الانسحاب زمنا ليس بالقليل ولم نستطع أن نركب سياراتنا إلا بعد أن انتصف النهار . ونسيت أن أقول إننا أتينا بعد خروجنا على ماء الصفيحتين فشربناه وظللنا من بعده يومين ونحن نتجشأ بنزينا قويا يكاد ريحه يضىء ولو لم تمسسه نار !

* * *

انقضت بعد عودتنا أيام رأيت فى خلالها بعض الصحاب فكان حديثهم ترديدا لما لاقينا من وعثاء الطريق ، وما قاسينا من سعار الكهف . ثم قابلت صاحبنا الايطالى فكان حديثه أنه يفكر فى الحصول من الحكومة على امتياز لاستغلال النبع واقامة فندق صغير بجواره وتهيئة بواخر خفيفة تصل بينه وبين السويس حتى تنقلب الرحلة إلى متعة ينعم بها المستشفى بدل أن تبقى كما هى الآن مشقة ينوء بها الرياضى . فهتف فى نفسى هاتف : « يعيش الدوتشى ! » ، وقلت لمحدثى : لمثل هذا فليعمل العاملون .

حسن جلال

العدد ١٨٣ من الرسالة

نفدت طبعة هذا العدد فليس فى الادارة منه شىء فنرجو من الذين يطلبونه أن ينتظروا حتى نعيد طبعه وبومئذ سنعلن فى الرسالة عن موعد توزيعه